الفصل الأول

عصر المتنبي

١ ـ الحياة السياسية والقومية

رافق المتنبي القرن الرابع للهجرة منذ استهلت أعوامه حتى تخطى نصفه الأول فشهد في حياته زحمات الحوادث وتقلب السياسة وتفرق الأمصار والشعوب . ومن شعره نستبين معالم هذه السياسة في عصره ، ونجد الطوابع القومية في الغاية التي نشدها إذ كانت البلاد الإسلامية موزعة بين الإخشيديين [١] والحمدانيين [٢] والبويهيين [٣] ، وكانت بغداد تحكم في ظلال خائف يترقب ، أضاع الكثير

---

(١) الإخشيديون : دولة مصرية عرفت بهذا الاسم . وكلمة « إخشيد » من ألقاب الأمراء عند قدماء الفرس ، منحه الخليفة الراضي عام ٣٢٦ هـ (٩٣٧ م) لمؤسس هذه الدولة محمد بن طغج . ويقال إن لفظ الإخشيد معناه ملك الملوك » . ويذكر آخرون أن معناه « عبد » ، ويحتمل حينئذ أن يكون قد استعمل كما استعمل الخلفاء « عبد الله » اسما من أسماء الشرف . وتوفي الإخشيد في آخر عام ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) وقد خلفه اثنان من أبنائه ولكنهما لم يحكما إلا بالاسم فقط لأن السلطان الحقيقي كان في يد الخصي الحبشي كافور الذي ولاه الخليفة على مصر بعد وفاة ولدي الإخشيد .

(٢) الحمدانيون : ينسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون أحد رجال قبيلة تغلب الكبيرة وقد برز ابنه الحسين في خدمة الخليفة العباسي فأغدق عليه وعلى إخوته ألقاب الشرف . فولي منهم الموصل والجزيرة حتى إذا حلت سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) بسطوا سلطانهم على حلب وشمال الشام أيضاً وكان علي أخو الحسين الذي عرف بعدئذ باسم سيف الدولة ، هو الذي انتزع في ذلك العام حلب وحمص من الإخشيديين في مصر ، ثم كانت له مواقع قوية مشهورة مع البيزنطيين .

(٣) البويهيون : دولة قامت في العراق وفارس وغيرهما منذ سنة ٣٢٠ ـ ٤٤٧ هـ ورجال هذه الدولة وأنصارها الديلم ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، وإنما سموا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم وهم الشيعة العلوية . وجد آل بويه الأقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبو شجاع ، كان له ثلاثة أولاد تملك الأول بلاد فارس برضى الخليفة العباسي ، وتملك الثاني خوارزم والثالث شيراز ، ثم اتحد الثلاثة وساروا غرباً حتى أتوا بلاد بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤ هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم : عماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ، ثم استبدوا بالمملكة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولوهم ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب بالملك وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الإسلام .

مما كان فى يده من هيبة الحكم والسلطان .

فالبلاد فى داخلها مضطربة متحيّرة ، وليس فيها أمن المقام وراحة البال لكثرة ما كانت تعانى من الخصومة والتنازع ، وكل صاحب بلد قاقٌ على مصيره يخشى حاشيته ولا يعلم وجه التصرف فى إمارته وملكه ، وعدو المسلمين متربص بهم فى بيزنطة على الحدود الشمالية ، يأخذ الحمدانيين على غِرّةٍ عاماً بعد عام .

ولم تكن الأمصار العربية والإسلامية فى هذا العصر غافلة عن حياتها السياسية ، فإن الوعى الاجتماعى قد اتسع وعمّ ، فعرف الناس ما يحيط بهم من العوادى والخطوب ، مدركين أن الانقسام والخلاف طريق للضياع ، ولكن لم يكن فى وسعهم الإصلاح وتقويم الاعوجاج فى وسط تيّار جارف وفتنة عارمة ، فالإخشيديون — أيام كافور وقد نظّم الملك بمصر وأعدّ لها جيشاً وعمارة بحرية — كانوا يطمعون بامتلاك الديار الشامية كلها ، غير أنهم — وقد وجدوا سيف الدولة داهية فى السياسة ، متمرساً بالحكم والتدبير ولديه جيش جرّار وقف به فى وجه البيزنطيين — تهيبوا جانبه فلم يتورّطوا معه بعداء مستديم . وخليفة بغداد الذى وجد سيف الدولة درعاً له لم يحاسبه فى إمارته التى أقامها بحلب ، كما ترك أخاه نصر الدولة يقيم إمارة بأعالى العراق .

وبين هذا وذاك كانت فارس متربصة بالعرب تستيقظ بملء جفونها لتطيح بالعروبة وآمالها بعد أن تملكت زمام الجيش واستولى منها رؤساء على المصالح فى الإدارة والقضاء .

وكان الحمدانيون أنفسهم منقسمين بين عمومة وتحاسد ، فأبو العشائر غير قانع بإقطاع أنطاكية [1] ، وأبو فراس بمنبج [2] — وهى إقطاعه — يضمر لابن

---

(١) وتسمى عند القدماء أنطيوخيا مدينة فى شمال سورية وسط سهل خصب جميل فى الحوض الأدنى لنهر العاصى . بناها سلوقوس الأول سنة ٣٠٠ ق . م . مكان مستعمرتين قديمتين لليونان . وقد كان لها شأن كبير فى التاريخ كما كانت تعد أكبر مدن للإمبراطورية الرومانية وأكثرها سكاناً بعد رومية والإسكندرية . خربتها ملوك الفرس مرتين ودمرتها الزلازل المروعة التى تتابعت عليها بكثرة غير مألوفة . احتلها العرب عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) ثم انتزعت من بنى حمدان فى آخر عام ٣٥٨ هـ =

عمه سيف الدولة حرمة مشوبة بنكد وتنغيص ، إذ رأى المتنبي قريباً ووجد نفسه بعيداً

ومن الأدلة الواضحة على اضطراب السياسة فى هذا العصر ما كانت عليه الخلافة ببغداد فإن أبا حامد الإسفرائيني قاضيها [١] الذى عاش حتى أواخر القرن الرابع وعاصر المتنبي كان يتهيبه الخليفة ويحذره وقد تجاسر يوماً فكتب إليه متوعداً :

« أنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك »[٢]

فمن هذه العبارة التهديدية يتبين مقدار ما كان عليه خلفاء بغداد من ضعف السلطان فى هذا العصر وما بعده ، إذ كان الفرس الذين بسطوا نفوذهم على الجيش هم الذين ينصبون الخليفة ، فإذا تضايقوا منه دبّروا له مكيدة بالعزل أو القتل وأقاموا غيره من خلفه ، وكان أكثر الوزراء فى هذا العهد لا يؤتمنون ، ويعلم الخلفاء طوايا المخادعين ، لكنهم لا يمكون التخلص منهم إذ كانوا ذوى

=(٩٦٩ م) وفى ٢/٦/١٠٩٨ استولى عليها الصليبيون وبقيت فى حوزتهم حتى فتحها السلطان بيبرس أحد مماليك مصر عام ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) وهى اليوم فى حوزة الأتراك نزلت فرنسا لهم عنها وعن مدينة الإسكندرونة أيام كانت منتدبة على سورية . هذا والسوريون يجددون دائماً المطالبة بها .

(٢) منبج : مدينة قديمة وتسمى عند القدماء هيرابوليس وتقع على بعد عشرة فراسخ من مدينة حلب شمالا بشرق وعلى بعد ثلاثة فراسخ من نهر الفرات . شيدها الإغريق فى وسط سهل خصب وأقاموا لها سوراً كبيراً . وكان لهذه المدينة شأن عسكرى كبير ففيها كانت تحشد الجيوش للغزو أو للدفاع عن سورية كما كان لها أيام الرومانيين شأن دينى عظيم ، ويقال إن جستنيانوس تزوج تيودورا فى منبج وكانت تقطن فى إحدى القرى المجاورة . فتح المسلمون المدينة عام ١٦ هـ وتعرضت هى كذلك للزلازل فى عام ١٣١ هـ (٧٤٨ م) أصيبت بزلزال عنيف هدم كثيراً من مبانيها . وخضعت منبج لعوامل الفتح والغزو فتداولها الصليبيون والمسلمون وهى اليوم مدينة صغيرة زراعية . وحسبها فخراً أنها كانت مسقط رأس لشاعر عظيم هو البحترى وسرير الحكم لشاعر عظيم هو أبو فراس .

(١) توفى الإسفرائينى سنة ٤٠٦ هـ وكان أكبر أئمة الشافعية فى القرن الرابع ، وانتهت إليه صدارة الفقه وحلقة درسه بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، كان يحضرها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فقيه (راجع « طبقات السبكى » ج ٣ ص ٢٥) وقد اتصل أبو العلاء المعرى به وتأثر بآرائه الفلسفية ، كما قدم إليه قصيدة من شعر سقط الزند (راجع « تجديد ذكرى أبى العلاء » للدكتور طه حسين ص ١٤٤)

(٢) « ظهر الإسلام » للأستاذ أحمد أمين ج ٢ ص ٢٥٠ .

أعمال حاسمة فى سياسة الدولة العباسية، يعزلون ويولّون دون رفع الأمر إلى الخليفة، حتى إن الوزير أبا أحمد العباس بن الحسن كان ذا رأى حاسم فى الترشيح للخلافة بعد المعتضد [١] فكان يميل إلى ابن المعتز ثم غير رأيه فمال إلى جعفر بن المعتضد وولاه الخلافة لأنه كان فتىً ناشئاً وبذلك يمكن الاستبداد به، وقد تسمّى هذا الخليفة بالمقتدر.

ومن مساوئ السياسة فى هذا العصر وما بعده التغريم بالمصادرات إبان الفتن والانقلابات فقد ذكر القاضى أبو على المُحَسِّنُ التنوخى صاحب نشوار المحاضرة [٢] فصولاً مروِّعة من هذه المصادرات، كانت تشقى بأسبابها ووسائلها نفوس وتذلّ رقاب ويدخل معها التشفى والخصام.

هذه نظرات خاطفة على أطراف من الحياة السياسية ببلاد العرب فى العصر الذى عاش فيه المتنبى متقلباً بين هذه البلاد فى مراحل حياته.

أما الشؤون السياسية فى الكوفة — وقد ولد فيها الشاعر وهى التى طبعت شبابه بطوابعها وكان لها الأثر الأول فيه، فلم تكن مأمونة هادئة، ولم يعرف أهلها فى ذلك الحين الراحة والطمأنينة، إذ كان يسكنها جماعة من العلويين ذوى البأس، وكثرت فيها الغزوات القرمطية، وقد استفحل أمر القرامطة حتى أقاموا البلاد العربية وأقعدوها وبلغ من طغيانهم أن استولوا على الحجاز وقطعوا الحج على الحجاج، وكانوا يصادرون أموال كل بلد دخلوه، ولا يتحرجون من أى عدوان أو شغب.

وقد كثرت الحزازات فى الكوفة فى هذا العصر بين الشيعة والعلويين، ودامت الخصومة بينهما وحمى وطيسها.

أما الوضع القومى فى عصر المتنبى فكانت ساحته بلاد العرب، وكان بين تيارين عنيفين: التيار القومى الفارسى، وتيار العروبة الحرة.

فالقومية العربية التى تحدرت من الجاهلية تدعمها الأصالة فى الأنساب وقد توارثتها نفوس تلتهب بالحماسة والنخوة، أحست فى هذا العصر بنكبات وخطوب

---

(١) «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» لآدم ميتز ترجمة الدكتور أبى ريدة، ص ١٥.

(٢) الجزء الثامن بتحقيق المستشرق «مارغليوث» نشر المجمع العلمى العربى بدمشق.

تدهم أمجادها وتغشى حوزتها ، وتأخذ بخناقها .

كانت هذه القومية هى القوة الخارقة التى استطاع بها العرب أن يشقوا طريقهم فى غمار الأمم المجاورة إلى الفتح المبين ، قومية أصيلة مأثورة تضعفها تعاليم الإسلام على الرغم من دعوتها إلى محاربة العصبية الجاهلية ، إذ أن ما رسخ فى النفوس من عنجهية الدم والحسب لم تذهب به الحياة الدينية الجديدة .

وكانت ترْبدُ هذه القومية فى العصر الأموى والعباسى الأول نزعةُ الدين الإسلامى وما يحمل فى تعاليمه من حضٍّ على معالى الأمور والتماس ثواب الآخرة فى شهادة الجهاد ، فعاش العرب فى ظلال حكم عربى ، شعروا معه بحياة قومية لا يشوبها هوان ، وإن كانت تلك القومية قد تداخلها انقسام أهلها متحاسدين متنافسين بين أزديين وقيسيين ، أو بين عدنانيين وقحطانيين ، وقد جعلوا أنسابهم معرضاً للزهو والعزة والتفاخر . وقد عاش الشعر الجاهلى والأموى يدعمان أنساب العرب وتقاليدهم وربما قال الشاعر القصيدة من أجل بيت يتعلق بأصله ، وشعر الفرزدق وجرير والأخطل يعجّ بقضية الأنساب والأعراق الصحيحة والزائفة فى الفخر والهجاء ، أما فى عصر أبى الطيب فقد انقلب الأمر وتطورت الأحكام ولو أحصينا من كانوا فى القرنين الثالث والرابع للهجرة من أبناء الجوارى والإماء من الترك والروم لوجدنا الكثير ، إذ سقط من الحساب دم الأمهات وثبت دم الآباء ولم يعد أهل هذا الزمن وما تلاه يستسيغون دعوى النسب والأصالة فى العروبة وإن كانوا يجلون آل البيت النبوى ومن تنتهى قرابته إلى الرسول عليه السلام وصحبه رضوان الله عليهم فكان ثم مقام كريم وزعامة دينية لهؤلاء يتوارثونها ويعتزون بها .

٢ ــ الحياة الاجتماعية

ظفر المجتمع العربى والإسلامى فى عصر أبى الطيب بأسباب التقدم والحضارة وبدا أثر ذلك فى مظاهر عيشه ومرافقه وتكوينه ، فكانت الأمصار فى أطوار السلم والأمان تمرح فى بحبوحة من المال والغذاء ، ولم تصب بلدة بمجاعة ــ إلا

إذا ألحّ عليها حصار عدوّ قريب أو بعيد — وكان نظام الجباية والخراج منذ اختطه أبو يوسف القاضي [١] — وهو ما نسميه بنظام الضرائب فى زماننا ولكنه كان على نحو واسع يتناول المدن والأقاليم بكاملها، فتؤدى مالاً سنوياً للحاكم الأعلى — سارياً على تنسيق وإحكام ، ولو قورن بما كان معروفاً من نظم الجباية لدى الشعوب الرومية والهندية والفارسية لفضل عليها ، وكانت بيوت المال — ونسميها فى عصرنا بخزائن الدولة — ملأى بما يرد إليها من البلاد التى تتبعها .

لكن بعض الأمصار جارت فى نظام المال بسبب أمرائها ، فكان ابن رائق فى العراق أيام الخليفة الراضى مستبداً بالرعية ، يداريه الخليفة حيناً وحيناً يزجره ، وحاول هذا الأمير مرة أن يحتجن [٢] بعض ما تركه موسر من الموسرين لورثته .

أما سيف الدولة الحمدانى فإنه كان — على شجاعته ونبل مقاصده — قد أسلم أمر ماله إلى قاضيه أبى الحصين الرقّى فكان يصادر بعض التركات ويدخل بيت المال وهو يقول كلمته المشهورة :

« كل من هلك ، فلسيف الدولة ما ترك . . . »

حتى هلك هذا القاضى نفسه، فى وقعة من وقعات سيف الدولة مع أعدائه ، وحين جال البطل الحمدانى بعد هدوء المعركة يتفقد ضحاياها من جنده وقوّاده، وجد جثة أبى الحصين هذا بين القتلى ، فداسها بسنابك جواده وهو يقول :

« إذهب لا رَدَّك الله ، فقد كنت تزيّن لى وجوه الباطل ! »

وثمة صورة ثابتة فى حياة الجماعات التى تقاسمت العيش فى ظلال هذا العصر وهى حياة الأرقاء والأحرار ، فكانت المرأة والفتى يباعان مثل المتاع ، وقد بلغت أثمان المستحسنات من الجوارى ألوف الدنانير ؛ وأكثر القيان ثمناً هن اللواتى كن يحسن الغناء والضرب على العيدان والمزاهر [٣] ، وكانت بغداد أعظم سوق فى الشرق لهذه التجارة فى القرن الرابع للهجرة ، وقد اشترى ابن رائق أمير العراق فى الربع الأول من هذا القرن — جارية ببضعة عشر ألف دينار ، وأبدى

---

(١) كان كتاب « الخراج » لأبى يوسف تلميذ أبى حنيفة هو شرح القانون المالى القديم .

(٢) احتجن الشىء : جذبه بالمحجن أى العصا المعقوفة الرأس .

(٣) المزاهر : جمع مزهر وهو آلة من آلات الطرب كالعود أو الدف .

أهل بغداد يومئذ عجبهم من هذا الثمن الباهظ . وغلا الأمراء والأغنياء فى اقتناء السرارى والفتيان ، وكان للواحد منهم العشرات من هؤلاء ، ولهذه السوق مراكز تجارية وسماسرة يخضع أمرهم إلى وسائل التهريب والحيلة .

وقد أخذت الشفقة الخليفة المعتصم عند موته ، فأوصى بعتق ثلاثة آلاف من مماليكه ، وكانت حقوق الحروب والمغازى تغذى سوق الرقيق بالسبى والإسار. والحرب والرق متصلان منذ القديم فى حياة الأمم الاجتماعية التى عاشت حتى قامت فى عالمنا حقوق الإنسان ، وهى التى قضت على تجارة الرقيق ولم تستطع حتى اليوم أن تبيدها على الرغم مما بذله الرحالة ليفنغستون [1] ومات بسبيله ، وما صنعه من جاء بعده من محررى العبيد .

ولم يغض استرقاق الجوارى يومئذ من شأن المرأة الحرة ، فقد كانت متمتعة بسيادة اجتماعية ومنزلة رفيعة ، ولكن النساء الحرائر عامة فى العصر الذى نؤرخه كن يجدن فى الجوارى والسرارى منافسات لهن ، مما كان سبب نكبات شملت الخلفاء والأمراء حتى بلغت من كانوا دون هؤلاء .

وكان الرق والتسرى من أسباب الانهيار والتردى للأمة العربية ، فأصيب مجتمعها — حيثما كان — بمحن أخلاقية وخلاف فى الأسرة والعمل ، وارتقى بعض العبيد فى هذا العصر إلى مزاحمة السادة وأولادهم فى القيادة والحكم ، وكان منهم القائد والأمير كمؤنس وكافور.

أما التجارة فكانت سوقها رائجة نافقة ، وعلى الرغم من قيام الفتن والثورات كان الأمن يستتب بين تلك النأمات ، ويركن التجار لبيوعهم ويسود الرخاء . وكانت الزراعة مرموقة المحصول ، وقد عرف العرب والمسلمون كيف يستغلون الأرض ، فكثرت غلات الحبوب والقطن والأرز والسمسم ، وكانت أرض الحمدانيين فى الموصل وحلب من أجمل الأقاليم الخصبة ، غير أن سيف الدولة أمر باقتلاع الأشجار التى كانت حول حلب — إذ كان يتضايق منها جيشه — فأصاب أرباضها حيف أفقدها الخصب والجمال .

---

(١) ليفنغستون (١٨١٣ — ١٨٧٣) : رحالة إنجليزى ولد فى اسكتلندا واشتهر باكتشافاته فى إفريقيا الوسطى وأستراليا وحارب تجارة الرقيق .

٣ ـ الحياة الفكرية

١ ـ الفلسفة والكتب والعلماء

كان يميز الحياة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه المتنبى شيوع الفلسفة وازدهارها ، فاتبعت الفلسفة وأكثر العلوم العقلية منذ هذا العصر منهجاً علمياً وصارلها أسلوب مذهبي خاص وقد مشى معها علم الكلام ، وأقبل عليها المتأدبون .

ونحن نعلم أن فلسفة المسلمين إنما نبعت من فلسفة الإغريق وخاصة المنطق[١] بما نقل إلى العربية منذ عصر المأمون من آثار اليونان ، فتفهم علماء الإسلام هذه الفلسفة حتى عرفوها وأتقنوها فأخذوا يعلقون عليها ويحققون فيها وينشئون لهم فلسفة خاصة تتفق مع المنقول الإسلامى من آثار السلف وأعمال الخلف بما يساير المعقول الجديد .

وقد ظهر ابن النديم بكتابه « الفهرست » فى الربع الأخير من هذا القرن حاشداً فيه صنوف المؤلفات فى عصره وما قبله ، وفيها من كتب الفلسفة مقدار يدل على رواجها وإتقانها . وتفرّغ العلماء للبحث والتأليف فى هذا العصر تفرغاً لم يعهده السابقون ، وكان للعلم أداة نفسية ومادية تؤهل صاحبه لممارسته وقد قررها المطهر المقدسى فى مقدمة كتابه « البدء والتاريخ » فى شروط العلم فقال :

« ويأبى العلمُ أن يخفض جناحه أو أن يسفر عن وجهه إلا لمتجرد له بكليته ومتوفر عليه معان له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية وهو حليف النصب ، ضجيع التعب » ثم بين ما ينبغى للعالم من السلوك فى الاجتهاد والتتبع والتخلق بأخلاق العلماء ، واجتناب التحيز والهوى فى تقرير الحكم والرأى واتباع المعقول .

وقد شاع فى هذا العصر اقتناء الكتب وكثرت المكتبات وصار الملوك والأمراء بعد الخليفة الأمين يفاخرون باقتناء المصنفات ، ويتسابقون إلى شراء نوادرها .

---

(١) ينكر ابن تيمية هذا القول حتى إنه ينفى أخذ فلاسفة المسلمين المنطق عن اليونان ويرد الكثير من قضايا المنطق إلى منابع إسلامية بحتة مصدرها القرآن والحديث النبوى ، فى كتابه (الرد على المنطقيين) المطبوع فى الهند .

وفى أواخر هذا القرن أولعت بغداد بالكتب والتأليف، وصنع مثل ذلك أمراء الأندلس فكان الحكم صاحب الأندلس يبعث إلى المشرق بالعلماء والتجار الذين كانوا ينتقون له أحاسن المخطوطات وأطرف المؤلفات منذ ظهورها ، وبلغ فهرس مكتبته أربعة وأربعين كراساً كل كرّاس بعشرين ورقة ، وكذلك كان الأمر بمصر ، فكان للخليفة العزيز المتوفى عام ٣٨٦ هـ خزانة كتب حافلة ، وحين ذُكر بحضرته أن للخليل بن أحمد كتاباً نادراً فى اللغة وهو كتاب « العين » نادى خزنَة مكتبته وأمرهم بإحضار ما عندهم من هذا الكتاب النادر ، فأحضروا من فورهم ما زاد على ثلاثين نسخة منه وبينها واحدة بخط المؤلف نفسه ، وقد وصف المقريزى مؤلف تاريخ مصر فى خططه أن هذه المكتبة كانت تشتمل على مئات الألوف من الكتب النفيسة . وكان لعضد الدولة بفارس خزانة كتب مشهورة عليها أمناء ومتعهدون ، ولم يبق فى عهده كتاب أو مصنف إلا حصل على نسخة منه .

وظهرت الكتب فى التركات والمواريث فى صدر هذا العصر ، وحين توفى « محمد بن نصر الحاجب » خلفَ كتباً قومت بأكثر من ألفى دينار .

وكانت حلب فى أيام سيف الدولة دار علم وأدب وملتقى للمفكرين والشعراء وقد كثرت فيها المكتبات ، وكان قصره فى ظاهر حلب فى مكان يسمى « الحَلَبَة » مزهوًّا بنوادر المصنفات ، وكان يجرى على العلماء جرايات مالية ليتفرغوا للعلم والتأليف ، فأجرى على الفيلسوف والموسيقى أبى نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أربعة دراهم كل يوم ، وكان الفارابى أشهر من ظهر من الفلاسفة فى عصره فضلاً عن معرفته فن الموسيقى العربية ، كما ظهر « إخوان الصفا » برسائلهم الفلسفية النقدية التى أداروا بحوثها وحوارها فى الطبيعة وما وراءها وفى المغيبات والظواهر ، وكان لها أثر بعيد فى تبصير العقول ، بل نكاد نعدها من أسباب الثورة الفكرية ، وكانت مورداً عقليًّا لكثير من المفكرين .

وتحول فلاسفة هذه المدرسة الإخوانية إلى جمعية سرّية خشية من سلطان الدولة . وجعلوا يركزون نشاطهم الفكرى فى أوساط الشبان لسهولة انطباعهم

بالطوابع الفلسفية التى يريدونها فى جمعيتهم .

كما ظهر فى هذا العصر أبو الريحان البيرونى ، وأبو على ابن سينا وقد مهد الفيلسوف الكندى الذى جاء فى العصر السابق كثيراً من مناهج الفلسفة لمن جاء بعده .

أما البيرونى فلم يكن فيلسوفاً فحسب ، وإنما كان موسوعى المعرفة والثقافة وهو مؤرخ وجغرافى ، وقد عاش بعد منتصف القرن الرابع ، وحين نضج تفكيره وتمرّس بالمجتمع عنىَ بدراسة التطور فى حياة الأمم ، وكان له فضل كبير فى أن ينقل إلى علوم العرب وتاريخهم ما كانت عليه الهند من العلوم والمعارف ، فبذل من عمره أربعين عاماً فى نقل هذا التراث الهندى إلى العربية . وكان بينه وبين ابن سينا مكاتبات فأفاد كل منهما من الآخر .

وأما ابن سينا الذى احتفل العالم العربى والفارسى فى عصرنا بمرور ألف عام على مولده فقد انتهت إليه الفلسفة والطب ؛ وكان له فى تصانيفه الفلسفية دراسات نفسية تشبه إلى حد قريب مرامى علم النفس اليوم فى نظرياته وتجاريبه ، وكان هذا العالم إلى عقله روحانيًّا حكيماً ، وكتابه « الشفاء » الذى باشر العلماء المصريون فى نشر أجزائه يدل دلالة واضحة على قدرة تفكيره وعلمه ، وقد أولاه الأوربيون عناية خاصة وشاركوا فى الحفاوة بذكراه ؛ إذ كانت كتبه مصدراً فياضاً للدراسات الطبية ، منذ القرون الوسطى فى أواسط أوربا وفى إسبانيا ، فأقيم له منذ عامين بجامعة السوربون وفى جامعات العالم أسبوع خاص بذكراه الألفية ، وحسبه فخراً أن تنازَعَ نسبه وفضله العجم والعرب على السواء فى هذا العصر .

ب ــ الحركة اللغوية

عاش أبو الطيب المتنبى فى عصر تألق بالأدب من كل صنف ، وقد راجت سوق هذا الأدب وتقرب به أهلوه إلى الملوك والأمراء ، وكانوا به بين متكسبين للمعيشة وبين محبين موهوبين ، ولا عجب فقد كان الأدب للأمة العربية منذ

صدر الإسلام حتى أواخر العهدين العباسى والأندلسى ديوان حكمتها وفنونها ومظهر تفكيرها وشعورها .

ولم يكن الأدب منفرداً وحده — كما فى مصطلح زماننا — وإنما كان أهله مازجين بينه وبين اللغة وأقيسة المنطق والبلاغة .

فأصحاب اللغة استطاعوا فى هذا العصر أن يكوّنوا للأمة العربية معجماً واسعاً فكان إسماعيل بن حماد الجوهرى صاحب الصحاح منحة هذا الزمن فى اللغة ، صنف معجمه على حروف الهجاء ، وانتقى فى شرح كلماته أحسن الألفاظ وأصحها فاستراح الناس على يديه من كتب اللغة التى شاع فيها التشويش ولم تعرف التنظيم العلمى ، وخير ما ينفع الناس ما استطاعوا أن يتداولوه فى ثقافتهم وعملهم ، وقد جاء معجم الجوهرى صحيح النسب إلى صانعه ولم يكن مبتوراً مثل كتاب العين الذى صنفه الخليل ولم يتمه وقيل أتمه أو إن تلميذه أكمله من بعده .

فالجوهرى [١] إذن نظم للأمة العربية فى هذا العصر معجماً محكماً وضعه هو وجرى فيه على منهج علمى ، فحدد معانى الألفاظ وترك من جاء بعده يختصر معجمه أو يعلق عليه بما يزيد العربية فائدة وتحقيقاً ، وساعد التطور الذى كانت تمرّ به اللغة فى هذا العصر والحضارة التى مارسها العرب فى تنمية لغتهم واتساع أفقها وانبساط سلطانها ؛ إذ كان التعبير هو الوسيلة العملية للاستفادة من اللغة وإخراجها من معجماتها ونصوصها إلى سوق التداول فى الأخذ والعطاء .

ورفد اللغة علم النحو والصرف بنموّه والتنافس فيه ، وكثر العلماء المنصرفون إليهما ، وكان النحو لا يزال يجد فريقين يخضع كل منهما إلى نزعة منهجية كوفية أو بصرية . ومن الذين تضلعوا من النحو والصرف واللغة أيضاً فى هذا العصر أبو على الفارسى وأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وأبو سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الربعى ، وكان هذا الأخير تلميذاً لأبى على الفارسى لازمه بشيراز ، وأخذ عنه اللغة والنحو [٢] فى عشرين سنة وتوفى سنة ٤٢٠ هـ .

---

(١) توفى سنة ٣٩٢ للهجرة .

(٢) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » لأبى الحسن القفطى ج ٢ ص ٢٩٧ طبعة دار الكتب سنة ١٩٥٢ .

أما أبو على الفارسى فكان ذا رأىٍ حر فى النحو وثقة فى اللغة ، وله أقوال كانت الفاصل فى مخالفات كثيرة ، وكان يؤثر القياس ويعنى بقيمة الأصالة للكلمة العربية ، وفتح باب التعريب للكلمات الأعجمية ، وكان بنضرة فكره وتيسيره اللغوى سابقاً لزمنه ، إذ أصبحنا نحس فى عصرنا الحاضر ضرورة ماسة لتوسيع لغتنا مع الحفاظ على أصالتها لنكفل لها الحياة التى تتمتع بها اللغات الغربية الحديثة .

وجاء بعده ابن جنى وهو من أصحاب أبى الطيب وخلصائه ، وكان الشاعر يثنى عليه وله معه ماجريات . وكان ابن جنى من أكبر المعجبين بشعر أبى الطيب وقد حفل كتابه « الخصائص » [١] بأصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه والمقاييس [٢] والمطارحات اللغوية والنحوية بينه وبين أستاذه أبى على الفارسى وغيره من تلاميذه وإخوانه .

وكانت طريقة أهل اللغة فى تعليمهم أسلوب الإملاء « المعنعن » فى قولهم حدّثنا فلان وروى عن فلان ، وكان يمثل هذه الطريقة فى هذا العصر أبو القاسم الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ وهو أحد كبار المدرسين للغة ورواة الأدب والأخبار ، وقد وصف « السيوطى » فى كتابه « المزْهر » النهضة اللغوية من فواتحها إلى خواتمها التى أدركها بعصره مشيداً بأعمال اللغويين منذ أبى عمرو بن العلاء والأصمعى ؛ وجعل كتابه « طبقات النحاة » [٣] على طريقة أبى عمر بن عبد الواحد اللغوى المعروف بغلام ثعلب والمتوفى سنة ٣٤٥هـ فكان يجاذب تلاميذه أسئلة وأجوبة حول اللغة والأدب ، فيقيدونها فى دفاترهم ، وبرز فى هذا العصر ببلاط سيف الدولة جمهرة من علماء اللغة والنحو والشعراء وكان من أشهرهم ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ للهجرة .

---

(١) توفى سنة ٣٩٢ للهجرة وأتيح لكتابه « الخصائص » طبعة قديمة صدر عصرنا وحديثة سنة ١٩٥٢ بدار الكتب .

(٢) « الخصائص » ص ٢ الطبعة المتقدمة .

(٣) « بغية الوعاة فى طبقات النحاة » طبع القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

حـ — الأدب والكتاب

أما الأدب فكان فى القرن الرابع الهجرى مرآة أصحابه وصور نفوسهم وأهوائهم، ولم يكن بمعزل عن الجماعات ، ففيه آثار كثيرة صوّرت مجتمع هذا العصر فى الشعر والنثر لكنه لم يبرز كأدب بحت خالص لأخبار الشعراء والأدباء إلا عند القليل كالثعالبى فى « يتيمة الدهر » [١] . فأبو على القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ جعل كتابه الكبير الذى سماه « الأمالى » على نحو ما كان معروفاً فى عصره من إملاء الأستاذ تلاميذه مقولاته فى الدرس والبحث فظهر جامعاً بين الأدب واللغة والقصص والتاريخ ، ولم يخل من النحو والصرف .

ولانستطيع أن نجد الأدب المحض فى نماذج محددة ومنهج واضح مثلما نجده عند أبى الفرج الأصبهانى الذى صنف لسيف الدولة كتابه « الأغانى » وأجازه عليه بألف دينار واعتذر ، فالأغانى يصور فى هذا العصر ما تناهت إليه معرفة مؤلف كبير كأبى الفرج فى جمع أصوات اختارها مما كان يغنى به فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهده ، ومن أجمل ما قال الشعراء وأروع ما فى شعر العرب من معانى الغزل والشوق والمواجد والفخر ، وهو إن حشا كتابه بالتعابير الاصطلاحية لفن الموسيقى العربية المعروف بزمانه والذى ما زال حتى اليوم مضروباً عليه بسجف المجهول ، فإننا إذا جاوزنا هذه المقولات الفنية الموسيقية ظهر لنا كتاب الأغانى بنثره وشعره عالماً حضارياً لا يفنى فى أدب العرب بل سوف يبقى على الدهر مرجعاً وثيقاً لحياة مئات من الشعراء المطبوعين الذين تركوا فى الدنيا ذوب أرواحهم المرهفة ، وغرائب سيرهم فى الحب والحرب والعبادة .

وصاحب الأغانى فى جملة كتابه، الذى يمثل عصره أصدق تمثيل فى الحفاوة بأخبار الشعر ، كان يروى رواياته كتعليقات على الأصوات أو كمقدمات لها ، فيدلى بحكمه وأحكام غيره من النقاد ويعكس على مرآته عصره كله فى عادات

---

(١) توفى سنة ٤٢٩ هـ ومن أجل آثاره « يتيمة الدهر » وقد طبع هذا الكتاب بدمشق سنة ١٣٠٤ واستخلص منه المستشرق (رودلف دفوراك) النص الخاص بأبى فراس الحمدانى مع دراسة له عن الشاعر وتتبع دقيق ، وقد نشر كتابه هذا فى مدينة ليدن سنة ١٨٩٥ ميلادية .

المجتمع ومجالس الفكر والمؤانسة وفى الزواج والحفول ودور القضاء ، وفى بيوت الخمارين والمجون ومجالس الغناء والطرب بما يسوق من القصص المنسقة داعماً كل ذلك بأسانيد على نسق المحدثين حين يسندون أحاديث الرسول فيرفعونها إلى قائليها الأوائل ليضمنوا صحتها وتداولها فى مجالس الدرس والشرح والمناظرة ، فضلاً عن التراجم — وإن توزّع بعضها فى جسم بعض ، فقد جاءت واعية شائقة تسرد سير الشعراء والمغنين والمغنيات بصبر وأناة وتعمق .

وظهر فى هذا العصر من أهل الأدب البحت الكاتب أبو الفضل بن العميد ، وهو إن اتبع السجع والتنسيق اللفظى مع إفراط فى فنون المحسنات فى رسائله ، فقد كان واعى الفكر حصيف الرأى ومن عدول من كتبوا فى كلام العرب على الرغم من كونه فارسيًّا ، وقد بالغ وهو وزير بالحفاوة بأبى الطيب الذى مدحه بغرر الأماديح وسار إليه فنزل ضيفاً عنده .

كما ظهر الصاحب بن عباد برسائل على هذا الغرار . وقد حظى ابن العميد بمدح أبى الطيب كما حظى الشاعر بعطاياه . أما الصاحب فقد تأبى عليه أبو الطيب ورفض أن يمدحه فلقى المتاعب من جراء ذلك ، إذ ألف الصاحب كتاباً فى مثالبه لكنه ذهب مع الريح وبقى فى سجل التاريخ الزمنى للأدب العربى أن أبا الطيب أعرض عن مدحه ذهاباً بنفسه وقد سئل عن ذلك فقال :

— « أنا لا أمدح سوى الملوك . . . »

وما جرى فى البال ذكر الصاحب بن عباد [١] وابن العميد [٢] حتى اهتاج خاطرى من أجل كاتب عرفه هذا العصر هو أبو حيان التوحيدى المتوفى أوائل القرن الرابع للهجرة ، فقد سلخ عمره متعباً منغصاً ، وكان صدْرَ حياته كاتباً ناسخاً بأجر زهيد يعطاه على الصفحة فكان مجهود الأنامل والعينين ، ولم يستطع الوصول إلى أمراء عصره فتأخرت نباهة صيته حتى اتصل ببعض قضاة زمنه وبالوزير ابن العارض الذى سخا عليه بالتقدير والعطاء ، وكان يعقد له مجالس للنقاش والحوار ، ويسجل مناظرات العلماء والمتكلمين بحضرته فى مجالس متتابعة ،

---

(١) توفى سنة ٣٦٠ للهجرة .

(٢) توفى سنة ٣٨٣ للهجرة .

وقد ألف كتباً خالدة فى الأدب والمناظرة والأخبار والنوادر وكان عربى النزعة والاتجاه ، ولذا كرهه أدباء فارس ،وكان أكثرهم تنغيصاً له وطعناً فيه الصاحب ابن عباد حتى آذاه فى شهرته ورزقه ، وهو يعدّ بحقّ إماماً من أئمة النثر العربى البعيد عن الصنعة والتكلف وإليه ينتهى محور النثر الأنيق من الجاحظ أبى عثمان . ولم ينم هذا الأديب على الضيم وإنما انتقم ونال من الوزيرين : ابن العميد والصاحب ، بأن هجاهما وفند عملهما وعيّرهما بالمثالب وأبان للجمهور ما كانا يصنعان بأهل الأدب مما لا تجيزه المروءات فى مكافأة المحرومين والمعتفين من المفكرين والشعراء ، والذين كانوا ينزلون بأبواب الوزيرين ملتمسين العطاء ، فيعودون بالخيبة والأمل المكسور بعد الحجب الطويل . ونجد صدى نفسه الصافية المنغصة فى بحثه عن الصديق الذى كان قد افتقده فى حياته وقد صور خواطره فى الصداقة والأصدقاء ، بكتاب تحت هذا العنوان . وترك للعربية كتباً وروائع مرموقة تعد ذخراً أدبياً واجتماعياً من بينها كتابه المقابسات[١] وهو ديوان ثقافته وتفكيره والإمتاع والمؤانسة [٢]. وآثار أبى حيان فى هذا العصر ترجمان زمانه ولقد عرفنا فيها كثيراً من العلماء والحكام ، وكان يسرد وراء أسمائهم أوصافاً متتابعة تصويرية ترسم فى ترجمته للرجال أصدق الصور وأروعها .

ونجد فى أدب هذا العصر صوراً لمجتمعه ، فالتأنق فى اللفظ عند بعض كتابه هو صدى للتأنق فى اللباس والطعام والزينة فى بعض الطبقات ، وخاصة زينة البيوت بالتصاوير والنقوش ، فكان على الكلام المنثور أن يمارس عصر أصحابه ،فإذا النثر الفنى يبرز لدى أصحابه المتأنقين المزاوجين بين الجمل ،والسالكين فى حوك العبارات النثرية جمال القوافى الشعرية ، مثل طنفسة أو قطعة من الديباج الموشى أو البساط المزركش أو حائط الفسيفساء .

غير أن هذا التزويق والتنميق على ظرفه وملاحته قد انتهى إلى تكلف مكشوف وصناعة لفظية لا صلة لها بالمحسنات الجمالية ، وقد بدت بعدئذ فى

(١) طبع بمصر بإشراف الأستاذ السندوبى .

(٢) طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بإشراف المرحوم الأستاذ أحمد أمين . وقد ألف أبو حيان هذا الكتاب للوزير ابن العارض .

صورة مقامات عند بديع الزمان والحريرى، وما كان أشبهها بألاعيب « السيرك » بزماننا وتلاوين الأزياء ، إن صح هذا التشبيه ،وفى أعمال لاعبى « السيرك » كثير من التبديع والأعاجيب تدل على البطولة والمغامرة ، ويكثر فيها اللهو والتهريج ، وبذلك انقلب النثر من وسيلة للتعبير والأداء إلى غاية فى ذاته ، وليس هذا هو المطلوب من رسالة اللغة .

د — الشعر والشعراء

أما الشعر فى هذا العصر فقد انبعث فى قريحة المتنبى عبقرية فياضة ومواهب متجاوبة وكان أبو الطيب أكثر الشعراء طموحاً ، بل كان فى هذا التألق والتجدد ثمرة تطور فنى وتمازج فكرى بدأ من الثلث الأول للقرن الثانى وذلك بقيام الدولة العباسية ، فمنذ بشار بن برد حدثت فى شعر العرب هزة جديدة ، وطفر الشعر طفرة رائعة ، وجاء أستاذ الشعراء أبو تمام ففتح باباً جديداً لصناعة الشعر العربى ومضى تلميذه البحترى على غراره فى صنع الشعر وقوله ، وإن أدخل عليه من ذوقه وفنه الشىء الكثير سواء فى الوصف والتصوير أم فى دقة المعنى والتعبير ، كما أخذت تلوح بوادر الابتكار فى المعانى الطريفة ، وكان أبو نواس وصحبه من شعراء الخمر والمجانة بدعاً فى هذا الشعر ، فبعثوا فيه روح التجدد والتفنن ، كل ذلك مع حفاظ على ديباجة القول المحكم الرصين وإبراز القصائد والمقطّعات فى طراز رفيع يربط حاضر هذا الشعر بماضيه ، لكن الروح الفنية الجديدة دخلت هذا الشعر وآذنت الحضارة بتمازج الثقافات كما آذن الزمن أن يرث القرن الرابع كل هذه الصفات والمزايا فى الشعر العربى ليستقبل أبو الطيب هذه المواريث سائغة مستحبة فيتداول أروعها وأبقاها ويختص شعره بأقوى ما فيها .

وكان بين الشعراء المبرزين آخرون دونهم فى الشهرة والقصيد فى هذا القرن — وكانت لهم آثار فنية شاعت لدى القوم حتى تبناها النقد والبحث — فيهم الشاعر أبو بكر الصنوبرى الحلبى [1] الذى كان خازناً لمكتبة سيف الدولة [2] وكان له

(١) « معجم الأدباء » لياقوت الجزء الثانى ص ٣١١ .

(٢) توفى الصنوبرى سنة ٣٣٤ للهجرة .

شعر حسن ومن سوء حظه لم يعن به الثعالبي فى « يتيمة الدهر » ولا الأصبهانى فى « أغانيه » .

وكان فى بلاط سيف الدولة شاعر آخر هو كشاجم له مفارقات لطيفة فى الشعر كما كان يجول بين حلب والموصل شاعران آخران هما الخالديان [1] وكان يسميهما الثعالبي بالساحرين .

وفى « يتيمة » الثعالبي شعراء كثيرون غير هؤلاء عاشوا فى ظلال سيف الدولة كالنامى أبي العباس، وكان ألمعهم أبو فراس الحمدانى ، وعاش آخرون من الشعراء عند البويهيين فى فارس أو بالعراق .

---

(١) « يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر » لأبى منصور الثعالبي . طبع دمشق . الجزء الأول ص ٥٠٧ .